البَيِّناتُ وأُولُو النُّهَى: البلاغةُ القرآنيَّةُ والعَقْلُ العربيّ

أ.د. عيسى علي العاكوب

عُضْوُ مَجْمَعِ اللّغةِ العربيّةِ في دمشق

أستاذُ البلاغةِ والنّقدِ في جامعةِ حَلَب

تبدو صِلةُ اللُّغة بعَقْلِ الإنسانِ مِنَ القُوّةِ بِحيثُ يستطيعُ الإنسانُ أَن يعرِّفَ العَقْلَ بِأنّهُ اللُّغةُ، ويتحدَّثَ عن العَقْلِ تمامًا وهو يتحدّثُ عن بناءِ اللُّغةِ وحَرَكتِها الدّاخليةِ وخَصائصِها الأدائيَّةِ ونَظْرَتِها إلى أشياءِ العالَم. ومِن هنا تنبَّهَ العربُ إلى أَنّ الإنسانَ يظلُّ في مَأمَنٍ مِن العَيْبِ والانتقاصِ ما دامَ صامتًا، فإذا هو تكلَّمَ وعبَّرَ فَقَدْ عرَضَ عَلَيكَ أسرارَ عَقْلِهِ وحقائقَ كَيْنُونَتِه: إنسانًا ناعِمًا بنِعْمةِ العَقْلِ، أو فاقِدًا لِهذه النِّعمة. وإلى هذا جَرى جَوادُ قائلِ العَرَب[1]:

وَكائِنْ تَرَى مِنْ صامِتٍ، لَكَ مُعْجِبٍ زِيادتُـهُ، أو نَقْصُـهُ، فـي الـتَّكَلُّمِ

ومُسلَّمٌ، والحالُ كذلكَ، أَن نقولَ: إنَّ البيانَ العربيَّ في المرحَلَةِ التي سَبَقَتِ الإسلامَ مثَّلَ لنا طَبِيعةَ العَقْلِ العربيِّ في الحِقْبة الجاهليَّةِ خيرَ تَمْثِيل، فما اللُّغةُ إلّا المظهَرُ الخارجيُّ لِنشاطِ العَقْلِ واختياراتِه ونَظْرتِه إلى العالَم. وقد أبدَتْ عربيَّةُ ما قَبْلَ الإسلامِ العَقْلَ العربيَّ، الشاعِرَ والنَّاثرَ، دَرّاكًا لِما يُحِيطُ بِالعربيِّ إدراكًا دقيقًا، مُتابِعًا لِلْجُزْئيّاتِ والتّفاصيلِ البادِيَةِ لِعيانِ الإنسانِ العربيِّ. وأبدَتْهُ هذه اللُّغَةُ مُنشغِلًا كثيرًا بالصَّيرورةِ الوُجُودِيّةِ المتحرّكةِ العارِضةِ لِلْجَديدِ الطارئ في كلِّ لَحظة.

١- يُنسَبُ البيتُ لِأبي الأَعْوَرِ السُّلَمِيِّ، ولزُهَيرِ بنِ أبي سُلْمَى.

وارتبطَ مَجْدُ العَقْلِ وفخرُهُ عندَهم بِقُدْرَتِهِ عَلَى تَسْجِيلِ لَحَظاتِ المُوافَقَةِ والمخالَفَةِ؛ أي ما جارى هَوَى النَّفْسِ أو خالَفَه، ولَحَظاتِ الحِيادِ التي تَظهرُ فيها الأشياءُ والأحوالُ كِياناتٍ وُجوديّةً صامِتةً ساكِنةً.

والمُلاحَظُ في المُنجَزِ الفَنِّيِّ اللُّغويِّ لِلْعَقْلِ العربيِّ في الجاهليّةِ أنَّ أكثرَه ظَلَّ محدودًا بِإطارِ الوُجودِ المُعايَنِ المَحسوسِ في أرضِ جَزِيرةِ العَرَبِ وسَمائها، وقَلَّما تعدَّى العَقْلُ المبدِعُ ذلكَ إلى تأمُّلاتٍ رُؤيَويّةٍ أو غَيبيّة، أو إلى وُجُودٍ غيرِ وجودِهم. وفي هذا المَعْنَى يقولُ مُفَكِّرٌ عَرَبيٌّ مِن القَرْنِ الرَّابعِ الهِجْرِيِّ لَدَيْهِ مَيْلٌ إلى تَسْجِيلِ التّأريخِ الأَدَبيِّ: «واعلَمْ أنَّ العربَ أودَعَتْ أشعارَها، مِن الأوصافِ والتّشبيهاتِ والحِكَمِ، ما أَحاطتْ به معرفتُها، وأدركَهُ عِيانُها، ومَرَّتْ به تجارِبُها، وهُمْ أهلُ وَبَرٍ، صُحُونُهُم البوادي وسُقوفُهم السّماءُ، فليستْ تَعْدُو أَوْصافُهم ما رأَوْهُ مِنهما وفِيهما، وفي كُلِّ واحِدَةٍ مِنهما في فُصولِ الزَّمانِ عَلَى اختلافِها مِن شتاءٍ ورَبيعٍ وصَيْفٍ وخَرِيف، مِن ماءٍ وهَواء، ونارٍ وجَبَلٍ، ونَباتٍ وحَيَوانٍ وجَماد، وناطقٍ وصامِت، ومتحرِّكٍ وساكِن، وكُلِّ مُتَوَلِّدٍ مِن وقتِ نُشوئِه، وفي حال نُمُوِّه، إلى حالِ النِّهاية»[1].

وفي نِطاقِ البيانيَّةِ اللُّغويَّةِ، أو القُدْرةِ عَلَى تَوْصِيلِ المُراداتِ والمَقاصِدِ والرّغائبِ، قدَّمَتْ لُغةُ المرحلةِ الجاهليَّةِ نَماذِجَ عاليةً مِن التّأديةِ اللُّغويّةِ البارِعةِ، التي يَنطَبِقُ عَلَيها ما سَمّاه الشَّيخُ عبدُالقاهِرِ الجُرْجانيُّ في القَرْنِ الخامِسِ الهِجْرِيِّ: البلاغةَ والفَصاحةَ والبَيانَ والبَراعة. ولَدَى أُمّةٍ تعتمدُ الاستظهارَ والحِفْظَ عن ظَهْرِ قَلْبٍ، ظلَّ القانونُ الجَماليُّ البلاغيُّ السائدُ مُفادَ قولِ الشَّاعِرِ:

خَيــرُ الْكَــلامِ قَلِيــلُ عَلَــى كَثِيــرٍ دَلِيــلُ

١- ابن طَباطَبا: عيار الشِّعر، ص١٥.

ويعني هذا أنَّ نَشاطَ العَقْلِ العربيِّ الجاهليِّ في إنتاجِ الكَلامِ العالِي، أو البيانِ، ظَلَّ زمَنًا طويلًا محكومًا بِمَبْدَأ نَفْخِ أَكْبَرِ قَدْرٍ مِن الرُّوحِ في أقلِّ قَدْرٍ مِن الجَسَد، في إنسانِ اللُّغةِ. ولْيأْذَنْ لَنا القارئُ الكَرِيمُ بِاسْتِعْمالِ تَعْبِيرِ (إنسان اللُّغة) هذا في الأَجْزاءِ القادِمةِ مِن هذا المَقال. ولَنا أن نسألَ هنا: كيفَ بَدَا (إنسانُ اللُّغةِ) الجاهليّةِ مِن هذه الوِجْهة؟

يَفترِضُ القانونُ الجَماليُّ البلاغيُّ الذي أشَرْنا إِلَيْهِ تَوًّا أنَّ جسَدَ هذا الإنسانِ جاءَ يَشِعُّ مَعْنًى ورُوحًا وخَيالًا وفِكْرًا، حتّى كاد هذا الجَسَدُ أن يَكُونَ رُوحًا صِرْفًا، كالحَدِيدِ الذي يُصهَرُ في الأَفْرانِ العالِيَةِ الإِيقاد، الذي يُنادِي عَلَى نَفْسِهِ بِأَنَّهُ (نارٌ لا (حَدِيدٌ). لكنَّ الأَمْرَ لم يَكُنْ كذلكَ، عَلَى الحَقِيقة. وكانَ لا بُدَّ مِن انتظارِ أَن تأتيَ لُغةُ السَّماءِ إلى الأَرْضِ، وهذا ما حَدَثَ حَقًّا عندَما صارَ العَرَبُ إزاءَ (إنسانِ لُغةِ) القرآنِ الحَكِيم، الذي يَفُوقُ (إِنْسانَ لُغةِ) البَشَرِ بِما لا يُقدَّرُ. فَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ ﷺ أَنّ نَبِيَّنا عَلَيهِ الصّلاةُ والسّلامُ قالَ: «يقولُ اللهُ سُبْحانَهُ وتعالى: مَن شغلَهُ القُرْآنُ وذِكْري عن مسألتي أَعْطَيْتُهُ أفضَلَ ما أُعْطِي السَّائلينَ». وفَضْلُ كلامِ اللهِ سُبْحانَهُ وتعالى عَلَى سائِرِ الكَلامِ، كَفَضْلِ اللهِ تعالى عَلَى خَلْقِه. فهَلْ لَنا، بِالقِياسِ، أَن نَقُولَ: إنَّهُ صارَ عندَ العربِ، والبَشَريّةِ جَمْعاءَ، بِنُزولِ الوَحْيِ، (إنسانُ لُغةٍ) مَزِيَّتُهُ عَلَى (إنسانِ اللُّغةِ) العربيّةِ البشريّةِ أكبَرُ بِما لا يُقدَّرُ مِن مَزِيّةِ الإِنْسانِ، في الحَياةِ، عَلَى الحَيَوانِ والجَمادِ والنّبات؟ وهلْ كانَ لِ (إنسانِ لُغةِ) البَشَرِ أَن يَسْتَفِيدَ حَياةً إضافيّةً مِن (إنسانِ لُغةِ) القُرْآن، أو البلاغةِ القرآنيّة؟

تستدعي طَبيعةُ المُناقَشةِ هنا أن نركِّزَ، في كَشْفِ سُلْطانِ البلاغةِ القرآنيَّةِ عَلَى العَقْلِ العَرَبيِّ بعدَ نزول الذِّكْرِ الحكيم، عَلَى الطّابَعِ المَائزِ بينَ القرآنِ الكريمِ والمُنْجَزِ البلاغيِّ العربيِّ في المَرْحَلةِ التي سَبقَتِ الإسلامَ. ولَعَلَّ أظهَرَ ما يَمْثُلُ

أمامَنا هنا أنَّ القُرْآنَ الكريمَ مِن أوَّلِه إلى آخِرِه، أو مِن باءِ ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ التي سَبَقَتْ فاتِحَةَ الكِتابِ، إلى سِينِ ﴿النَّاسِ﴾ الأَخِيرةِ في سُورةِ النَّاسِ، سِلْسِلَةٌ مِن الآياتِ الدَّالّةِ بِالقَصْدِ الأوّلِ الذّاتيِّ، والقَصْدِ الثّانويِّ، عَلَى اللهِ سُبْحانَه، وعلى حقيقةِ الإنسانِ وحرَكتِهِ، وكُلِّ ما يَلْتَبِسُ به مُنْذُ أَن كانَ رُوحًا إلى أَن يَسْتَقِرَّ بَعْدَ الحِسابِ في نعيمٍ مُقيمٍ، أو عذابٍ أَلِيم.

وبِناءً عَلَى المَلْحَظِ المُتقدِّمِ، يَستلزِمُ العَقْلُ تبنِّيَ المَبْدَأ العامِّ الذي يَقُولُ: فَرْقُ ما بينَ كلامِ الله، سُبْحانَه، وكلامِ الإِنْسانِ، شَبيهٌ بِالفَرْقِ بينَ اللهِ جلَّ وعَلا وبينَ الإنسانِ، ولِأَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى: ١١]، يَجِبُ أَن يكونَ كَلامُهُ ليسَ كَمِثْلِه كَلامٌ.

وابتغاءَ إدراكِ الأشياءِ عَلَى ما هي عليه، يحتاجُ دارِسُ البلاغة القرآنيّةِ إلى أن يضَعَ في حِسَابِه جُملةً مِنَ المبادئ العامَّة، التي يُتصوَّرُ أنَّها تَحكُمُ الفَهْمَ الحقيقيَّ لكيفيَّةِ تأثيرِ البلاغةِ القرآنيَّةِ في العَقْل العربيِّ المُنتِجِ لِلْكَلامِ البليغ:

١- البلاغةُ القرآنيّةُ هاديةٌ إلى الرُّشْدِ وإلى الطَّريقةِ التي هي أَقْوَمُ الطُّرُق، فقَصْدُها هو قَصْدُ القرآنِ الكريمِ نفسُه، وهو الذي وصَفَهُ سُبْحانَه بقوله: ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١-٢]، و: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

٢- البلاغةُ القُرْآنيّةُ مُتلَقّاةٌ مِن لَدُنِ الحكيمِ الخبيرِ العليم، إذ يقولُ ربُّنا سُبْحانَه: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ويقولُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النّمل: ٦].

٣- المضمونُ الذي تُؤدِّيهِ البلاغةُ القُرْآنيّةُ حَقٌّ كُلُّه، لا يَأتِيهِ الباطلُ ألبتَّةَ.

٤- البلاغةُ القُرْآنيّةُ، أو آياتُ التَّدْوِينِ، تُشارِكُ آياتِ التَّكوينِ المبثوثةَ في الآفاقِ والأنفُسِ، في أنَّهما تَقْصِدانِ إلى الإفْهامِ والعُبورِ بعَقْلِ الإنسانِ مِن الآيةِ،

بِمَعْنى العَلامةِ الدّالّةِ، إلى مُنْزِلِ الآية أو العَلامةِ، وهو اللهُ سُبْحانَه. فالسَّماواتُ والأرضُ وما فِيهنَّ آياتٌ دالّاتٌ، وشَواهِدُ قائماتٌ، كُلٌّ مِنها يؤدِّي عن اللهِ سُبْحانَه الحُجّةَ، ويَشهَدُ لَهُ بِالرُّبوبيّة. والبلاغةُ القُرْآنيّةُ في آياتِ التَّدْوِينِ آياتٌ دالّاتٌ، وشَواهِدُ قائماتٌ، كُلٌّ مِنها يُؤدِّي عن اللهِ سُبْحانَه الحُجَّةَ، ويَشهَدُ لَهُ بِالرُّبوبيّة.

٥- تَقصِدُ البلاغةُ القُرْآنيَّةُ إلى تأهيلِ الوِعاءِ العَقْليِّ والخَياليِّ والشُّعوريِّ البشَريِّ لِمَعْرفةِ وَحْدانيّةِ الله، سُبْحانَه، وعَظَمتِه.

٦- الشَّكْلُ في البلاغةِ القُرْآنيّةِ قاصِدٌ إلى قَصْدِ جُمْلةِ القُرْآن، وهو قادرٌ عَلَى أَن يَستبِدَّ بِعَقْلِ الإنسانِ ومَلَكاتِه الإدْراكيّة؛ ولِذلكَ اضطُرَّ الجاهليُّ الكافرُ بالمضمونِ، المُبغِضُ لِصاحبِ الرِّسالةِ، لِأَنْ يَصِفَ القُرْآنَ وبلاغتَه بالحَلاوة والطّلاوة، التي تعني عندَهم: الحُسْنَ والبهجةَ والقَبولَ والسِّحْرَ[1].

٧- يُفهَمُ مِن البَلاغةِ القُرْآنيّةِ، ومِن البَلاغةِ التَّكْوينيّةِ أيضًا، إرادةٌ إلَهيّةٌ لِأَنْ يُسجِّلَ الإنسانُ إيمانَه بِرَبِّهِ سُبْحانَه بالقَصْدِ مِنه والإرادةِ والجُهْد، أي بِالإذْعانِ لِلْآية، هذا مَعَ أنَّ الخالِقَ، سُبْحانَه، قادرٌ عَلَى تَسْجِيلِ الإنسانِ في سِجِلِّ أهلِ الإيمانِ، مِن دُونِ مُرورٍ بِطَريقِ (الإيمانِ بِالآية).

٨- الانسجامُ والتَّناغُمُ ووَحْدةُ القَصْدِ في آياتِ التَّدْوِينِ، وفي آياتِ التَّكْوِينِ أيضًا، دالَّةٌ عَلَى وَحْدانيَّةِ الله سُبْحانَه. وقد نبَّهَ القُرْآنُ عَلَى ذلكَ في آياتِ التَّدْوِينِ فقالَ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النّساء: ٨٢]، وفي آياتِ التَّكْوِينِ فقالَ سُبْحانَه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢]. ومِن هنا جاءَ

١- يُنظَر: القاموس المحيط (طلا). والإشارةُ هنا إلى الوَلِيدِ بنِ المُغِيرةِ في قَوْلِه عن القرآن: «إنّ له لَحَلاوَةً، وإنَّ عليه لَطلاوةً، وإنَّ أسفلَهُ لَمُغْدِقٌ، وإنَّ أعلاهُ لَمُثْمِرٌ». يُنْظَر: دلائلُ الإعْجازِ لِعَبْدِالقاهِرِ الجُرْجانيّ، ص٣٨٨.

قولُهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إنَّ القرآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِيُكَذِّبَ بعضُهُ بعضًا، فما عرفتُم مِنه فاعمَلوا به، وما تشابَهَ فآمِنوا به»[1].

- قابِليّةُ عَقْلِ الإنسانِ لإدراكِ الآياتِ في التَّدْوِينِ والتَّكْوِين:

لعلَّهُ بِقَدْرٍ مِن التّأمُّلِ يُدْرِكُ الإنسانُ فِكْرةً كبيرةً تُساعِدُنا، إن شاءَ اللهُ، في استخلاصِ عَدَدٍ مِن التّبصُّراتِ المُهمّةِ في شأنِ البلاغةِ القرآنيَّةِ وعَقْلِ الإنسان. وخُلاصةُ ذلكَ أنّهُ لا بُدَّ مِن افتراضِ أنَّ عَقْلَ الإنسانِ، أيًّا كانَ هذا الإنسانُ، خَلَقَهُ ربُّه عَلَى نَحوٍ يكونُ فيه الإنسانُ قادرًا عَلَى مَعْرِفةِ خالِقِهِ، سُبْحانَه. ولا بُدَّ، في البَدْء، مِن التَّسليمِ بِأنَّ القَصْدَ الأساسيَّ مِن الخَلْقِ الإلهيِّ لِلْإِنْسانِ هو مَعْرِفةُ الله، سُبْحانَه. ويُشيرُ القُرْآنُ الكريمُ إلى ذلكَ بِالقَوْلِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات: ٥٦]، فمَعْنَى يَعْبُدُونَني، هنا، يَعْرِفُونَنِي. فإذا كانَ الخالِقُ، سُبْحانَه، خلَقَنا لكي نعرفَه، وهذه هي مُهمّةُ وُجودِنا في هذه الحياة العابِرةِ، فماذا هيَّأَ لنا ربُّنا، سُبْحانَه، لكي تتحقَّقَ هذه المعرفةُ؟ يَهْدِي التأمُّلُ في الكتابِ العزيزِ، في هذا الشَّأنِ، إلى أمرَيْنِ، هُما: الآياتُ البَيِّناتُ في التَّدْوِينِ والتَّكْوِينِ، والعَقْلُ المُستبينُ عندَ الإنْسان.

ويَستَدْعِي السَّيْرُ في هذه الوِجْهة تَسْلِيمًا بِأنَّ في العَقْلِ الآدَميِّ استعدادًا وتَهيُّؤًا لِإدراكِ الآياتِ، في التَّدْوِينِ والتَّكْوِين. فالآيةُ لا تكونُ آيةً إلّا بِوُجُودِ العاقِلِ القادِرِ بِعَقْلِهِ وبَصِيرتِهِ عَلَى إدْراكِ الآية. ويَجْعَلُ القُرْآنُ الكريمُ ما يجيءُ في الذِّكْرِ الحَكِيمِ مِن إيضاحٍ وتَعْلِيمٍ بَيانًا لِلنَّاسِ، كالذي نَجِدُ في قَوْلِه تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

ولا بُدَّ مِن أَن يعنيَ هذا أنَّ عُقولَ النَّاسِ مُهيَّأةٌ بِالفِطْرةِ لِإدراكِ الآياتِ، وإلّا

١- أخرجَه ابنُ مَرْدَوَيْهِ مِن حَدِيثِ عَمْرِو بنِ شُعَيْبٍ عن أبيهِ عن جَدِّهِ عن رَسُولِ الله، صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

فكيفَ تكونُ مَعاني القُرْآنِ وإيضاحاتُه بَيانًا لهم، وآياتٍ يُرادُ لِعُقُولِهم أَن تُدرِكَها. ويعني هذا، في جُمْلةِ ما يعنيه، أنَّ ثمّةَ تَناسُبًا وتَشاكُلًا بينَ بِناءِ الآياتِ، وبِناءِ عَقْلِ الإِنْسانِ، وهو تَناسُبٌ يُفهَمُ مِن خَلْقِ اللهِ، سُبْحانَه، الأعضاءَ والجَوارِحَ في جِسْمِ الإنسان مُناسِبَةً لِلْوَظائفِ والأعمالِ التي يُرادُ لَها أن تؤدِّيَها. وهذا التّناسُبُ والتَّشاكُلُ هو الذي يُسمَّى، مِن وِجْهةٍ ما، قابِلِيَّةً أو استعدادًا، وهو عَيْنُهُ آيةٌ مِن آياتِ اللهِ، سُبْحانَه.

ولَعلَّنا نَمضي في الفَرْضيّةِ أكثرَ، فنقولُ: إِنَّ الحِكْمةَ الإلَهيَّة، وربُّنا هو الأعلَمُ، تقضي بِأنَّ كثْرةَ تأمُّلِ العَقْلِ لِلْآيةِ وتدبُّرِها تُصلِحُ هذا العَقْلَ[1]، وتُعيدُ إليه ألْقَه الفِطْريَّ، سَواءٌ أكانَ ذلكَ في آياتِ التَّدْوِينِ أم في آياتِ التَّكْوِين. فلَعلَّ ذلكَ مِن قَبيلِ إِعْمالِ الآلةِ، أوِ الأداةِ، بِالعَمَلِ الذي هيَّأها له الصَّانِعُ. وهو أمرٌ مُسلَّمٌ في أعضاءِ الجسَدِ ووَظائفِها، فكيفَ لا يُسلَّمُ في أعضاءِ الرُّوحِ والعَقْلِ، آلاتِ إِدْراكِ المَعاني والآياتِ والعَلامات؟

وفي مَجالِ آياتِ التّدْوِينِ، أو البَلاغةِ القُرْآنيّةِ، أَحْدَثَ ذلكَ تَحوُّلًا خَطِيرًا في نفوسِ العربِ الذين استمَعُوا لِلْقُرآنِ، وأنصَتُوا إِلَيهِ، وأمعَنُوا النَّظَرَ في آياتِه، وتدبَّروا نَظْمَه ورَصْفَه وجَمالَ أَدائِه. وفي التَّاريخِ الذي عَرَفْناهُ، أنَّ المُحيطَ الأوَّلَ لِتداوُلِ القُرْآنِ وتدبُّرِهِ كان مُنطَلَقًا لِسيادةٍ إنسانيّةٍ رائعةٍ لِلْعالَم. فإنَّهُ مِن مَكَّةَ والمَدِينةِ، انطلقَ مَن سادُوا العالَمَ في دِمَشْقَ، ثمَّ في بَغْدادَ، ثمّ في قُرْطُبَةَ وغَرْناطَةَ، وجُمْلةِ شِبْهِ الجَزِيرةِ الإِيبِريّةِ (الأَنْدَلُس). وعَلَيْهِ، يكونُ الذينَ سادُوا العالَمَ في حِينٍ مِن الدَّهْرِ همُ الَّذينَ أدْرَكُوا بِعُقُولِهم بلاغةَ القُرْآنِ، وتشبَّعُوا بِمَعانِيهِ

١- كيفَ لا يُفضِي تأمُّلُ الآيةِ إلى إِصْلاحِ العَقْلِ وإعادةِ ألْقِهِ الفِطْرِيِّ إليه، وفي سُورةٍ واحدةٍ مِن القُرْآنِ الكريمِ خَصَّ المَولى، سُبْحانَه، إدراكَ الآيات بـ ﴿قومٍ﴾ لهم هذه الصّفاتُ: ﴿يتفكّرونَ﴾، ﴿يَعْقِلُونَ﴾، ﴿يذّكَّرونَ﴾، ﴿يَسْمَعُونَ﴾. يُنظَر: سُورة النَّحْل: ١١، ١٢، ١٣، ٦٥، ٦٧.

ومَبانِيهِ، وبَهرَهم سُطُوعُ الحُجَجِ والبراهينِ فيه. وأَعْنِي بِـ (السِّيادةِ) السِّيادةَ الرُّوحيّةَ والعِلْمِيّةَ والعَقْليّةَ؛ إذ كانُوا أَساتِذَةً ومُعلِّمِينَ لِلنَّاسِ الخيرَ والفضيلةَ.

ونأذنُ لِأَنفُسِنا بِالقَوْلِ: إنَّ الإِثارةَ البلاغيّةَ القُرْآنيّةَ، المُصْلِحَةَ لِلْعُقُولِ، ماثِلةٌ عَلَى الدَّوامِ في هذا الكتابِ العَزِيزِ، ولكنْ لا بُدَّ مِن وُقُوفِ العُقُولِ عِنْدَ الآياتِ، والْتِماسِ الفُتوحِ والبَرَكات.

- ماذا أحدثَتِ البلاغةُ القُرْآنيّةُ في العَقْلِ العربيّ؟

في مَقْدُورِنا، في هذا المَجالِ، تَقْدِيمُ عَدَدٍ مِن الخُلاصات:

١- هيَّأ القُرْآنُ الكريمُ الحَياةَ الدّائمةَ لِلْبَلاغةِ العالِيةِ؛ وذلكَ بِإعلانِهِ ضَرورةَ قراءتِهِ وتَجْويدِ هذه القِراءة، والتفكُّرِ فِيهِ، وتِلاوتِهِ في الصَّلَواتِ الخَمْسِ، وفي خَطابةِ الجُمَعِ والأعيادِ والمُناسَباتِ المختلِفة. وضَمِنَ القُرْآنُ ثَوابًا جَزْلًا لِقارئي القُرْآنِ ومُستنبِطي خَصائصِهِ البلاغيّةِ ولَطائفِهِ التَّعبيريّةِ والمعنويّة. فَعَنْ عَبْدِالله بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قال: «إنَّ مَنْ كانَ قبلَكُمْ رأَوُا القرآنَ رَسائِلَ مِن رَبِّهم، فكانُوا يَتدبّرونَها بِاللَّيلِ ويتفقَّدونَها في النَّهار».

٢- ألزَمَ القُرْآنُ الكريمُ، والحديثُ النَّبويُّ الشَّريفُ، المُسْلِمَ بِالمُواظَبةِ عَلَى مُطالَعةِ شواهِدِ البلاغةِ العاليةِ في الكتابِ العزيزِ وتأمُّلِها، فقالَ ربُّنا سُبْحانَه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [مُحَمَّد: ٢٤]، وقال نَبيُّنا عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «استَذْكِروا القُرْآنَ؛ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِن صُدورِ الرِّجالِ، مِنَ النَّعَمِ مِنْ عُقُلِها»[1].

٣- هيَّأتِ البلاغةُ القُرْآنيّةُ لِعَقْلِ العربيِّ فَضاءً جَماليًّا لُغَوِيًّا، يبعَثُ في نَفْسِ المُتأمِّلِ الإحساسَ بِالحُسْنِ والبَهجةِ والقَبولِ والسِّحْرِ، وجُمْلةَ مَعْنَى السَّعادةِ

١- رَواهُ البُخاريُّ ومُسْلِم، رضي الله عنهما. والتَّفَصِّي: التَّفَلُّتُ والخُروجُ. والنَّعَمُ: الإبِلُ. والعُقُلُ: جَمْعُ (عِقال)، وهو ما يُعْقَلُ به البعيرُ، أي يُشَدُّ وَظيفُهُ إلى ذِراعِه.

والرِّضا، ومِن هنا جاء قَوْلُ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنهُ: «إذا وقَعْتُ في آلِ ﴿حمٓ﴾، وَقَعْتُ في رَوْضاتٍ دَمِثاتٍ أتأنَّقُ فِيهنَّ»، أي: أَتتَبّعُ مَحاسِنَهُنَّ[1].

٤- أبْقَتِ البَلاغةُ القُرْآنيّةُ البليغَ العربيَّ، أيًّا كانَتْ دَرَجةُ تمكُّنِهِ، تحتَ تأثيرِ نَموذجٍ بَلاغيٍّ يَعْلُو، ولا يُعلَى عَلَيْهِ. فالمُبْدِعُ اللُّغويُّ العربيُّ يَظَلُّ يَختزِنُ في ذِهْنِهِ أُفُقًا بَلاغيًّا لا مُتناهِيًا، متمثِّلًا دائمًا في بلاغةِ القُرْآنِ الكريم. ويفعلُ هذا الإدراكُ فِعْلَهُ في سَعْيٍ دائمٍ مِن هذا المُبْدِعِ إلى ارتيادِ أُفُقٍ بَلاغيٍّ سامٍ، معَ إيمانٍ ثابتٍ بِأنَّ البَلاغةَ القُرْآنيّةَ إلَهيّةُ المَصْدَرِ، وأنَّهُ عاجِزٌ عن مُحاكاتِها. إذ تَظَلُّ البَلاغةُ تؤكِّدُ لدى العربيِّ أنَّ العبدَ عَبْدٌ، وأنَّ الرَّبَّ رَبٌّ. وفي القُرْآنِ الكريم إلحاحٌ عَلَى أنَّ الآيةَ، أو البَيِّنَةَ، تأتي مِن (الرَّبِّ)، سُبْحانَه. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ تقديمَ الآيةِ لِلْعَقْلِ شأنٌ مِن شُؤونِ الرُّبوبيّةِ؛ إذِ الرَّبُّ في اللُّغةِ هو الخالِقُ والمُربِّي ومُدبِّرُ الأَمْر.

٥- سَعَتِ البَلاغةُ القُرْآنيّةُ إلى نَقْلِ العَقْلِ العربيِّ مِن (شِعْريّةِ) جُمْهُورٍ مِن الغاوِينَ الَّذينَ يَطرَبونَ لِلتَزَيُّدِ والمُبالَغَةِ المُسْرِفةِ، إلى (بلاغَةِ) جُمْهُورٍ مِن المؤمنينَ العامِلينَ للصَّالحات، الذَّاكرينَ لله سُبْحانَه كثيرًا.

٦- تُغلِّبُ البَلاغةُ القُرْآنيّةُ العَقْلَ والقَلْبَ والأَناةَ والرِّفْقَ والنَّثْرَ الرَّاقيَ، عَلَى الوَهْمِ والحِسِّ والطَّيْشِ والخُرْقِ والشِّعْرِ السَّاقِطِ الهابِط.

٧- علَّمَتِ البَلاغةُ القُرْآنيّةُ العَقْلَ العربيَّ ضَرورةَ استعمالِ البلاغةِ واللَّسَنِ والفَصاحةِ في أبوابِ الخَيْرِ والصّلاحِ والفَضيلة. وفي هذا يقولُ نبيُّنا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مَنْ تعلَّمَ صَرْفَ الكَلامِ لِيَسْحَرَ بِهِ قُلُوبَ النَّاسِ لَمْ يقبَلِ اللهُ مِنهُ صَرْفًا ولا عَدْلًا»[2].

١- يُنظَر: دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجانيّ، ص٣٨٨. والرَّوضَةُ الدَّمِثةُ هي: المُخصِبَةُ اللَّيِّنَةُ السَّهْلَةُ المُعْشِبَة.

٢- يُنظَر في سُنَن أبي داوود برقم ٤٣٥٣، باب ما جاء في المُتَشدِّق في الكَلام ج١٣، ص١٩٣.

٨- دَفَعَتِ البَلاغةُ القُرْآنيّةُ عُلَماءَ البيانِ والمُفسِّرينَ والنُّقَّادَ ودارسي البلاغةِ العربيّةِ إلى تَحْدِيدِ الأُسُسِ والمبادئِ لِجَمالِ الأداءِ والصِّياغةِ والصَّنْعَةِ البيانيّة. وقد كانَ القُرْآنُ الكريمُ، وسَيظَلُّ إن شاءَ اللهُ، مادّةً لِاستنباطِ تَقْنياتٍ بلاغيّةٍ، وجَماليّاتٍ، ولَطائفَ، لا نِهايةَ لَها أبدًا.

ونَحسَبُ أنَّ شواهِدَ البيانِ العالي في الكتابِ العزيزِ ستزدادُ معَ الزَّمنِ، وسيُضافُ كثيرٌ مِنها إلى الموجودِ مِنها في مَصادِرِ الدَّرْسِ البلاغيِّ وكُتُبِ تَعْلِيمِه. ولِأنَّ الشَّاهدَ البلاغيَّ القُرْآنيَّ أقوى شَواهِدِ هذا الفنِّ في المَعْنَى والمَبْنَى، سيظلُّ يَمُدُّ العَقْلَ العربيَّ وبلاغةَ العربِ بِعَناصرِ نَماءٍ وازدِهار.

٩- استيقنَ العَقْلُ العربيُّ القارئُ لِلْقُرْآن الكريمِ أنَّ مَجالِيَ القوَّةِ والتفوُّقِ والتفنُّنِ في البَلاغةِ القُرْآنيَّةِ، داخِلةٌ في الهدايةِ والإيمانِ ومعرفةِ الله سُبْحانَه، والتَّصْديقِ بِرِسالةِ نبيِّهِ محمَّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ. ذلكَ لِأنَّ عناصرَ القوّةِ التَّعبيريّةِ، واللّاتَنَاهِيَ في الجَزالةِ والتَّفصيلِ والإحكامِ في لُغةِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ، مادّةٌ لِتأمُّلِ عَقْلِ الإنسانِ وتدبُّرِه، والوصولِ مِن ذلكَ إلى معرفةِ صِفاتِ المُنْزِلِ سُبْحانَه، وإدراكِ شيءٍ مِن أَسْرارِ عَظَمَتِه وقُدْرَتِهِ وعِلْمِه. ومِن هذه الوِجْهةِ يقولُ العَلّامةُ سَعْدُ الدِّينِ التَّفْتازانيُّ (ت ٧٩٢هـ): «فإن قُلْتَ: قد تَتفاوتُ الكُتُبُ بِحَسَبِ جَزالةِ النَّظْمِ وبَلاغَتِه، كالقُرْآنِ فإنَّهُ فاقَ سائرَ الكُتُبِ بِإعجازِ نَظْمِه. قُلْتُ: هذا داخِلٌ في الهِدايةِ؛ **لِأنّهُ إرْشادٌ إلى التَّصديقِ ودَليلٌ عليه**»[١].

وينبني عَلَى هذا الفَهْمِ، أنَّ الانشغالَ بِإدراكِ الجَماليّاتِ البلاغيّةِ القُرْآنيّةِ جُزءٌ مِن الدِّينِ والطَّاعةِ، وأنَّ الكَشْفَ والاستنباطَ والاستِجْلاءَ في هذا المَجالِ مِمّا يَدُلُّ الخَلْقَ عَلَى الخالِقِ العظيمِ سُبْحانَه؛ وهو صَنيعٌ يقرِّبُ العبدَ مِن مَوْلاه، إن شاءَ اللهُ تعالى.

١- المُطَوَّل للسَّعْدِ التَّفْتازانيّ، ص٤٤٢.

وفي هذا تعليلٌ، مِن بعضِ الوُجُوهِ، لِانصرافِ عددٍ كبيرٍ مِن الذِّهنيّاتِ العربيّةِ اللَّمّاعةِ اللَّمّاحةِ، والعبقريّاتِ المُبْدِعةِ، لِارتيادِ هذا المَجالِ، والإنجازِ في مُعْطَياتِه.

١٠- يُستخلَصُ مِن تأمُّلِ تاريخِ الدَّرْسِ البلاغيِّ العربيّ، عَلَى امتدادِ القُرونِ المتطاوِلةِ، أنَّهُ غدا لِلعَرَبِ موقفٌ خاصٌّ مِن (بلاغةِ القَوْلِ) يَختلِفُ تَمامًا، ويجبُ أن يكونَ مُختلِفًا تَمامًا، عن مواقِفِ الأممِ الأخرى مِن بَلاغتها. وفي هذه الفِكْرة، قد يقولُ قائلٌ: لِماذا لا نَفْصِلُ دَرْسَ البلاغةِ القُرْآنيّةِ عن دَرْسِ البلاغةِ العربيَّةِ البشريّة، فتستفيدَ البَلاغةُ القُرْآنيّةُ، وتنتفعَ البلاغةُ العربيّةُ؟

والإجابةُ عن ذلكَ مُمكنةٌ بِطَرائقَ مختلفةٍ، لكنّنا نُؤثِرُ واحدةً مِنها فنقولُ: إنَّ الطَّريقَ الأساسيَّ لِمعرفةِ النَّفْسِ، عَلَى الحقيقةِ، يستلزِمُ المُقارَنَةَ بينَ قُدْرَةِ الإنسانِ المخلوقِ وقُدْرَةِ الرَّبِّ الخالِقِ سُبْحانَه. ويَدخُلُ في هذا، بِالتَّضمُّنِ، المُقارنةُ بَيْنَ مَجالِي الإعْجازِ الإلهيِّ في البَلاغةِ القُرْآنيّةِ، والإنجازِ البَشَريِّ في الجَماليّةِ الكَلاميّة؛ لِأنَّ هذا الإنْجازَ مِن أبرزِ ما يُفاخِرُ به العَقْلُ البَشَريُّ العربيُّ. ويُفهَمُ مِن هذا أنَّ الانشغالَ بِالعَظَمةِ الإلَهيّةِ المُتجلِّيَةِ في لُغةِ القُرْآنِ الكريمِ، سيَظَلُّ شُغْلًا شاغِلًا لِعقلِ العربيِّ، والمُسْلِمِ، ما دام مُنشغِلًا ومُهَمَّا بِتَثْبيتِ إيمانِه بِاللهِ سُبْحانَه، وبنائِه عَلَى أُسسٍ صَحِيحة.

١١- فرضَتِ البَلاغةُ القُرْآنيّةُ، التي يُبنَى عَلَى فَهْمِها فَهْمُ القُرْآنِ الكريمِ، أَن تغدُوَ عُلُومُ البلاغةِ، المعاني والبَيانُ والبَدِيعُ، أَساسًا مِن أُسُسِ ثقافةِ المُفسِّرِ لِكتابِ اللهِ سُبْحانَه، الكَشّافِ عن حقائقِ غوامضِ التَّنزيل. ولِهذا السَّببِ لا تَخْلُو مُقدِّمةٌ مِن مُقدِّماتِ كُتُبِ التّفسيرِ مِن التَّنبيهِ عَلَى هذا الأمرِ الخَطِير.

- إلامَ يَحتاجُ عقلُ الإنسانِ لكي يُدرِكَ شيئًا مِن آياتِ البلاغةِ والفَصاحةِ والبيانِ والبراعةِ في لُغَةِ القرآن الكريم؟

قُلْنا قَبْلُ: إنَّ العَقْلَ البشريَّ مُهَيَّأٌ فِطْرةً لِإدراكِ شيءٍ مِن تَركيبِ الوجودِ وعلاقاتِهِ وحَركةِ أجزائِه، وهو مُهَيَّأٌ كذلكَ لِإدراكِ شيءٍ مِن التّفصيلِ والإحكامِ والإتقانِ في لُغةِ القُرْآنِ الكريم. ويُعلِّمُنا القرآنُ نفسُهُ أنَّ عَقْلَ الإنسانِ مُحتاجٌ إلى عَدَدٍ مِن المُهَيِّئاتِ، ليقْدِرَ عَلَى تَبيُّنِ ذلكَ، وكَشْفِ شيءٍ مِن أسرارِهِ وخَفاياه. ومِن ذلك مَثَلًا:

١- أنَّ هذا العَقْلَ مُحتاجٌ في هذا الأمرِ إلى التَّدبُّرِ والتَّمعُّنِ والتَّأمُّل. وفي هذا جاءتِ الآياتُ مِن مِثْلِ قولِ ربِّنا سُبْحانَه: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقولِه سُبْحانَه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، وقولِهِ جلَّ وعلا: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [مُحَمَّد: ٢٤].

٢- أنَّهُ مُحْتاجٌ إلى الإخلاصِ التامِّ في نُشْدانِ الحقيقة، ومعرفةِ خاصّيَّاتِ الأشياء. ولِأَجْلِ ذلكَ يقولُ ربُّنا سُبْحانَه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠]. وفي القرآنِ، الذي هو المَصْدَرُ الأساسيُّ للمعرفةِ في الإسلام، إلحاحٌ عَلَى (الخَشْيةِ)، وعلى شَقيقتِها الأخرى: التَّقوى. بل يجعلُ القُرْآنُ الكريمُ حِصَّةَ (المُتَّقينَ) مِن إدراكِ جَلالِ الصُّنْعِ الإلهيِّ وجَمالِهِ أكبرَ بكثيرٍ مِن حِصَّةِ عامَّةِ النَّاس.

٣- أنَّهُ مُحْتاجٌ إلى المُواظَبَةِ في التَّتبُّعِ، والدُّرْبَةِ في مَجالِ إدْراكِ التّفاصيلِ والدَّقائقِ واللَّطائفِ في بَلاغةِ القُرْآنِ الكريم. وإلى هذه الغايةِ جَرى جَوادُ عَقْلِ الزَّمخشريِّ (ت ٥٣٨هـ) حِينَ قالَ: «ولا يَغُوصُ عَلَى شيءٍ مِن تلكَ الحَقائقِ إلّا رَجُلٌ قد بَرَعَ في عِلْمَيْنِ مُختصَّيْنِ بِالقُرْآن، وهما عِلْمُ المَعاني وعِلْمُ البَيانِ، وتمهَّلَ

في ارتيادِهما آونةً، وتَعِبَ في التَّنقيرِ عنهما أزمِنَةً، وبعثَتْهُ عَلَى تتبُّعِ مَظانِّهما هِمَّةٌ في معرفةِ لَطائفِ حُجَّةِ الله، وحِرْصٌ عَلَى استيضاحِ مُعجِزَةِ رَسُولِ اللهِ، بعدَ أن يكونَ آخِذًا مِن سائرِ العلومِ بِحَظٍّ، جامِعًا بينَ أمرَيْنِ: تَحْقِيقٍ وحِفْظ»[1].

- موضوعُ البَحْثِ في البلاغةِ القُرْآنيّةِ والبلاغةِ العربيّة:

يُرادُ بِالبلاغةِ القُرْآنيّةِ، عَلَى جِهةِ العُمومِ، لَطائفُ استِعْمالاتِ الكتابِ العزيزِ لِلْأَلْفاظِ العربيّةِ، ولِلتَّراكيبِ الكلاميّةِ، التي يُفضي التأمُّلُ فيها إلى كَشْفِ قُدرةٍ تَتجاوزُ كثيرًا قُدَرَ البُلَغاءِ والمَصاقِعِ عَلَى تَوْلِيدِ مَعانٍ غاياتٍ في اللُّطْفِ والسِّحْرِ والخِلابة. وهذه اللَّطائفُ هي مادَّةُ الإعجازِ الَّذي قالَ عنه عبدُالقاهرِ الجُرْجانيُّ: «لا يَثبُتُ إِعْجازٌ حتّى تَثبُتَ مَزايا تَفوقُ عُلومَ البَشَرِ، وتقصُرُ قُوَى نَظَرِهم عنها، ومعلوماتٌ لَيْسَ في مُنَنِ أَفْكارِهِم وخَواطِرِهم أن تُفضِيَ بِهِم إِلَيها، وأنْ تُطْلِعَهم عَلَيها»[2].

وقد أدهَشَ الأَبْناءَ العربَ، وسيظلُّ يُدهِشُهم، أنَّ القرآنَ الكريمَ يَعْرِضُ لِعَيْنِ المعْنَى الذي يَعْرِضُ له أفصَحُ فُصحاءِ العربِ فيحتشدُ ويتهيَّأُ لِإخْراجِهِ في أبهى مِعْرَضٍ[3]، فإذا ما تأمَّلَ الخَبيرُ المُدقِّقُ الفُروقَ بينَ طريقَتَي التَّعبيرِ عن هذا المعْنَى الواحِدِ تبيَّنَ له مِن البُعْدِ بينَ الطَّريقتَيْنِ، وبينَ المَعْنَيَيْنِ المُحصَّلَيْنِ، ما يساوي البُعْدَ بينَ الأرضِ والسَّماء. وقد مَثَّلَ عُلَماءُ جَمالِ الكلامِ لِذلكَ بِالفارِقِ الَّذي يُدرَكُ بينَ قولِ ربِّنا سُبْحانَه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقَوْلِ الفَصيحِ العربيِّ في المعْنَى نفسِه: «قَتْلُ البَعْضِ إِحْياءٌ لِلْجَميع»[4]. وإنَّ هذا المَيْدَانَ هو

١- يُنْظَر: الكشَّاف للزَّمخشريّ ١/ن.

٢- دلائلُ الإعجاز، ص٢٤٩. والمَصاقِعُ: البُلَغاءُ، الواحِدُ: مِصْقَع. والمُنَنُ: القُدَرُ، الواحِدةُ: مُنَّةٌ.

٣- هو في الأصلِ ثوبٌ تُجْلَى فيه الجاريةُ، وتُعرَضُ عَلَى المُشْتَرِي، والاستعمالُ هنا عَلَى المجاز.

٤- يُنظَر في هذه المقارنة: دلائل الإعجاز لعبدالقاهر، ص٢٦١.

الذي يَتجاوَلُ فِيهِ الفُرْسانُ، ويَتصاوَلُ فيه الأندادُ والأَقْرانُ. وإلى هذا المعْنَى ذَهَبَ الزَّمخشريُّ في قَوْلِه: «اعلَمْ أنَّ مَتْنَ كُلِّ عِلْمٍ، وعَمودَ كُلِّ صِناعةٍ، طَبَقاتُ العُلَماءِ فِيهِ مُتدانِيَةٌ، وأَقْدامُ الصُّنّاعِ فِيهِ مُتقارِبةٌ أو مُتساوِيَةٌ، إنْ سبَقَ العالِمُ العالِمَ لم يَسبِقْهُ إلّا بِخُطًا يَسيرةٍ، أو تَقدَّمَ الصَّانِعُ الصَّانعَ لم يَتقدَّمْهُ إلّا بمَسافةٍ قَصِيرة. وإنَّما الذي تباينَتْ فيه الرُّتَبُ، وتَحاكَّتْ فيه الرُّكَبُ، ووَقَعَ فيه الاستباقُ والتَّناضُلُ، وعَظُمَ فيه التَّفاوُتُ والتَّفاضُل، حتّى انتهى الأمرُ إلى أمدٍ مِنَ الـوَهْمِ مُتباعِـد، وترقَّى إلـى أَنْ عُدَّ ألفٌ بِواحِد: ما في العُلومِ والصِّناعاتِ مِن مَحاسِنِ النُّكَتِ والفِقَر، ومِن لَطائفِ مَعانٍ يَدِقُّ فيها مَباحِثُ للفِكَر، ومِن غَوامضِ أَسْرارٍ مُحتجِبةٍ وراءَ أستارٍ لا يَكشِفُ عنها مِن الخاصَّةِ إلّا أوحَدُهُمْ وأَخَصُّهُم، وإلّا واسِطَتُهُمْ وفَصُّـهُم. وعـامَّتُهُمْ عُمـاةٌ عن إدراكِ حَقائِقِها بِأحْداقِهِم، عُناةٌ فـي يَـدِ التَّقليـدِ لا يُمَـنُّ عَلَـيهِم بِجَـزٍّ نَواصِـيهم وإطلاقِهم»[1].

أَمّا موضوعُ البَحْثِ في البَلاغةِ العربيّةِ، فهي المَباحِثُ التي آلَتْ في صُورتِها النِّهائيّةِ إلى أَن تنتميَ إلى علومِ البَلاغةِ العربيّةِ الثَّلاثة: المعاني والبيان والبديع. وهي تتناولُ ثلاثةَ مَجالاتٍ لِتفوُّقِ الأداءِ اللُّغويِّ، الذي ينشأُ مِن استِعْمالِ اللُّغَةِ استعمالًا يَتجاوزُ الاستعمالَ العاديَّ.

ويُعالَجُ في الأوَّلِ مِن هذه العُلومِ الجَمالُ الكلاميُّ الناشئُ أساسًا عن مُوافَقَةِ الكَلامِ لِلْمَقامِ الَّذي يُقالُ فِيهِ. ويُعتبَرُ هنا الحالُ العَقْليّةُ والنَّفسيّةُ لِلْمُخاطَبِ، وهو أمرٌ يستلزِمُ حَساسيّةً كبيرةً مِن المُتكلِّم، وقُدْرةً كبيرةً عَلَى إعدادِ هَيْئاتٍ كَلاميّةٍ وصِيَغٍ تعبيريّةٍ، قادرةٍ عَلَى ارتيادِ عَقْلِ المُخاطَبِ وإحداثِ الاستجابةِ التي يَنشُدُها المُتكلِّم.

ويُعالِجُ ثاني هذه العُلومِ، عِلْمُ البيانِ، الكَيْفيّاتِ الكَلاميّةَ القادِرةَ عَلَى إبانةِ

١- الكشّاف، ١/ن. ومعنى «واسِطَتُهُمْ وفَصُّهُم»: أَفْضَلُهُم وخِيارُهم؛ مُستعارانِ مِن (واسِطةِ) العِقْدِ و(فَصِّ) الخاتَم. والعُناةُ: الأَسْرى، جمعُ عانٍ.

المقصودِ بِأَعْلَى دَرَجاتِ التَّوصيل. وإذا كانَ العِلْمُ الأوَّلُ يَهتمُّ بِالكَيْفيّاتِ اللُّغويّةِ مِن جِهةِ مُناسَبَتِها لِلْأَوْضاعِ الذِّهنيّةِ لِلْمُخاطَبينَ بِها، فإنَّ هذا العِلْمَ يَهتمُّ بهذه الكَيفيّاتِ مِن جِهةِ قُدْرتِها عَلَى إيضاحِ قَصْدِ المُتكلِّمِ لِلْمُخاطَبِ، بِالهيئةِ الكَلاميّةِ الأقدَرِ عَلَى هذا الإيضاح.

أمّا العِلْمُ الثَّالِثُ، عِلْمُ البديعِ، فيبحَثُ في إِخْراجِ الكَلامِ بِأَرْديةِ الزِّينةِ والجَمالِ والإِثارة. ويَفترِضُ في البليغِ، أو مُنْتِجِ الكَلامِ الجَميلِ، خِبْرةً واسعةً بِأَنْماطِ الجَمالِ الكَلاميِّ التي مِن شأنِها أنْ تُحرِّكَ النُّفوسَ وتَهُزَّ الطِّباعَ، وقُدْرةً كبيرةً عَلَى الاختراعِ والاستنباطِ والتَّنويعِ في هذا المَجال.

ولعلَّنا نُحْسِنُ عندَما نُذكِّرُ بِأنَّ ربَّنا، سُبْحانَه، نبَّهَنا عَلَى أمرٍ واحِدٍ مُهِمٍّ في آياتِ التَّكْوِينِ، وفي آياتِ التَّدْوِينِ، وهو (التَّصريفُ) و(التَّنويعُ) و(الاختلافُ)، فقالَ في شأنِ التَّنويعِ في آياتِ التَّكْوِينِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

أمَّا في آياتِ التَّدْوِينِ فنبَّهنا المَولى سُبْحانَهُ عَلَى شيءٍ مِن طَبيعةِ الآيـة، وهـو (التَّصريفُ)، حِينَ قالَ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤]، أي: نوَّعْنا القَوْلَ بِأساليبَ مختلفة.

- فِكرةُ التَّعليمِ بالجَمالِ في دَرْسِ البلاغتَيْنِ القُرْآنيّةِ والعربيّة:

يكتشِفُ مُتأمِّلُ الكِتابِ العزيزِ، أنَّ هذا الكِتابَ يُعلِّمُ الإيمانَ والحقائقَ والسُّلوكَ الإنسانيَّ، وكُلَّ ما فيه صَلاحُ الإنسانِ وخَيرُه، بِأَدَواتِ الجَمالِ البلاغيّ، وسِحْرِ البيانِ، ورَوْعةِ الاستعمالِ الخَلّابِ لِلُغةِ العرب، وأنَّ أَدَواتِ الجَمالِ اللُّغويِّ في هذا

الكِتابِ الإلهيّ تُهيِّئُ قارئَهُ المُتأمِّلَ المُستبصِرَ لِأَنْ يَتعلَّمَ دقائقَ الفِكَر، وحقائقَ العِبَر، ومَطالِبَ الاجتماعِ الإنسانيِّ اللّازِمِ لِأَهْلِ البَدْوِ والحَضَر، وهو يَقِظٌ مبتهِجٌ، مُحرَّكُ النَّفْسِ، مَهزوزُ الطَّبْعِ، مُستعِدّةٌ أَدَواتُ الإدراكِ لَديهِ أعلى دَرجاتِ الاستعداد.

وأُرِيدُ أن أؤكِّدَ، في هذا المَقامِ، أنَّ هذه طريقةٌ قَويمةٌ في التَّعْلِيمِ، أسمَيْتُها منذُ سنواتٍ: (التَّعليمَ بِالجَمال)، واقترحتُ أن تُنمَّى وتُتَبَنَّى، وأن يُضافَ إليها طريقةٌ أخرى في التّعْلِيمِ، أسمَيْتُها: (الأدَبَ المُؤدِّبَ)، حتّى إنَّني حاضَرْتُ في هذا الموضوعِ الأخيرِ في بعضِ المُؤتَمَراتِ والنَّدَوات.

وأَزيدُ، هنا، أَنَّ مادّةَ البَلاغةِ القُرْآنيّةِ، والبَلاغةِ العربيّةِ عَلَى الجُمْلة، قادرةٌ عَلَى تقديمِ العَوْنِ في مَجالِ تَنْمِيةِ القُدُراتِ البشريّةِ، وتعزيزِ المَلَكاتِ، والإسهامِ في بناءِ الإنسانِ الإِنْسانيِّ: الرَّحيمِ، المُحِبِّ، المُبْدِعِ، المُنْتِج. ويُستفادُ مِن هذه المادّةِ، عَلَى نِطاقٍ واسِع، في إِصْلاحِ الجَنانِ واللِّسانِ، اللَّذَيْنِ في صَلاحِهما صَلاحُ جُمْلةِ أَمْرِ الإِنْسانِ، ذلكَ الَّذي قِيلَ في شأنِه: المَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ: قَلْبِهِ ولِسانِه.

ويُهِمُّنا كثيرًا أَنْ نُؤكِّدَ في هذا الخِتامِ أنَّ وَظِيفةً أساسيّةً مِن وَظائفِ تَعلُّمِ قَوانِينِ البَلاغةِ والجَمالِ اللُّغويِّ، تَتمثَّلُ في تَطْبِيقِ العِلْمِ والأخْذِ بِالقَوانِينِ في الكَلامِ الذي نُنتِجُه، مِثْلَما يَقُولُ العَلّامةُ الجُرْجانيُّ: «واعلَمْ أنَّنا لَمْ نُوجِبِ المَزيّةَ مِن أَجْلِ العِلْمِ بِأنفُسِ الفُروقِ والوجوهِ، فنستَنِدَ إلى اللُّغة، ولكنْ أوجَبْناها لِلْعِلْمِ بِمَواضِعها، وما ينبغي أَن يُصنَعَ فيها. فليسَ الفضلُ لِلْعِلْمِ بِأنَّ (الواوَ) لِلْجَمْعِ، و(الفاءَ) لِلتَّعقيبِ بِغَيْرِ تَراخٍ، و(ثُمَّ) له بِشَرْطِ التَّراخي، و(إنْ) لِكَذا و(إذا) لِكَذا، ولكنْ لِأَنْ يتأتَّى لَكَ إذا نَظَمْتَ شِعْرًا وأَلَّفْتَ رِسالةً أن تُحْسِنَ التَّخيُّرَ، وأن تعرِفَ لِكُلٍّ مِن ذلكَ موضِعَه»[1].

١- دلائل الإعجاز لعبدالقاهر، ص٢٤٩-٢٥٠.

فَلْيَكُنِ الجَمالُ البَلاغيُّ، وخِلابةُ القَوْلِ، طَرِيقًا إلى تَعْلِيمِ العَقْلِ وحُبِّ الخَيرِ والفضيلة. والحَمْدُ لِلَّهِ الحَمْدَ الذي ارتضاهُ الرَّبُّ مِن العَبْدِ الأوَّاب، والسُّؤالُ له وحْدَه، سُبْحانَه، أَن يجعلَنا مِن أُولي النُّهى والأَلْبابِ، المأخوذينَ بسِحْرِ الآياتِ والحِكْمَةِ وفَصْلِ الخِطاب.